مُناقشات

القومية والعقيـــدة

بقلم علي محافظة

ان مايلفت النظر في مقال الاستاذ رجاء النقاش « القومية العربيـــة والخياليون » ماجاء فيه من رد صارم على ما أنكرته الادبية نازك الملائكة من ان القومية العربية ليست بعقيدة . وجاء أستاذنا يؤكد بحزم ويقول « ان القومية العربية اولا وقبل كل شيء عقيدة ، وهي عقيدة على وجه الخصوص في هذه المرحلة من تاريخنا ، عقيدة تتفتح كل يوم وتضيف الى غيرها من الافكار وتأخذ منها . والعقيدة هي ارقى صورة للمشاعـر الانسانية ، وهي الصورة الايجابية لهذه المشاعر . »

ولعل الدافع الى هذا الاصرار من جانب الكاتب هو اعتقاده بـــان القومية العربية هي نفسها الحركة القومية الحالية بمجالاتها السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية . وفي ذلك مغالطة واضحة .

وأرى من اللازم ان اوضح الفرق بين القومية العربية من جهةوالفكرة القومية اولا ، ثم انتقل الى بيان ما بين القومية العربية والعقيدة مـن فروق ثانيا .

فمنذ وجدت التجمعات البشرية الاولى لم تكن لها في البداية صفـة المجتمعات المحدودة الثابتة المتميزة بعضها عن بعض ، بل كانت تجمعات تفتقر الى عناصر الثبات والاستمرار وليس لها هوية واضحة متميزة . ولكن هذه التجمعات عاشت والتاريخ يرفدها بمفاهيم وتجارب ومقومـات انسانية جديدة فتعمقت الارتباطات المادية والارتباطات الروحية وتشابكتا داخل كل تجمع على حدة ، وبنتيجة المخالطة الطويلة المنتظمة اصبـح لكل تجمع لغة معينة وعادات وتقاليد ينفرد بها عن غيره . ومرت على كل تجمع ظروف تاريخية معينة نشأ من تفاعله معها تجارب ومعطيات وخصائص وثقافة خاصة ، وبذلك انقلبت تلك التجمعات غير المتميزة الى مجتمعات واضحة الشخصية اي انها انتقلت الى مرحلة الامة ، والشخصيـــة الجماعية لاية امة هي الواقع التاريخي واللغوي والثقافي الذي يحـوي نتاج ومعطيات جميع التجارب التي مرت بها الامة منذ نشأتها بنتيجة تفاعل عدة روابط مادية روحية خاصة بهذه الامة وهذا الواقع التاريخي الاجتماعي هو القومية .

اما الفكرة القومية فهي مجموعة المبادىء والافكار والمفاهيم والنظريات التي تدور في هذا الواقع او الوجود ، او بعبارة اخرى الفكـــرة القومية هي القالب الذي نصوغ فيه الوجود الاجتماعي التاريخي الذي هـــو القومية ، فهي التعبير العقلي العام عن القومية ، فالفكرة القومية اذن تعتمد في وجودها على القومية فهي لم توجد القومية لان القومية موجودة اصلا وليست مكتسبة كما انها ليست حلما راود خيال بعض المفكريـن ولا هي مجموعة من الافكار والكلمات التي لايربطها بالواقع اي رابطة ، وهي لم توجد في القرن التاسع عشر او القرن العشرين وانما هي قديمة قدم وجود الامة . والواقع ان الفكرة القومية هي التي ولدت في القرن التاسع عشر ، ومن هنا ندرك انالقومية ليست مرحلة طارئة وجدت في فترة معينة من الزمن نتيجة تضافر عوامل اقتصادية او اجتماعيـة معينة ، كما انها ليست شعارا سياسيا فرضته الظروف السياسية التي تمر بها الامة ولو كانت كذلك لزالت بزوال تلك الظروف .

ومن هنا نجد الفرق بين العقيدة القومية والقومية . فالعقيدة القومية هي الفكرة القومية وقد اتخذت تفسيرا عقليا اشمل وتبلورت بافكـــار واضحة وتفسيرات ومفاهيم معينة وتجددت بغايات متميزة . انها الفكرة حين تنتقل من مجرد محاولة التعبير الاولي عن القومية بانها الوجـود الاجتماعي التاريخي للامة الى محاولة تفسير هذا الوجود القومي وتحديد محتواه وانظمته ومؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكافة التفاعلات الجارية فيه وتحديد معنى ومبرر وجوده في هذا العالم ، وتعيين واجباته وعلاقاته بالنسبة للمجتمعات الاخرى واتخاذ موقف معين مـــن مختلف مظاهر الكون .

والفرق بين القومية كوجود والعقيدة القومية كمجموعة نظرات ومفاهيم تفسر هذا الوجود وتحدد محتواه وعلاقاته هو تماما كالفرق بين الانســان وبين المفاهيم والاراء التي يعتنقها . وكما ان المفاهيم والاراء تستمـــد وجودها من الانسان نفسه كذلك تستمد العقيدة وجودها من القومية وتتحدد وتتكون وفقا للبديهيات التي تفترضها والتجارب التي تعانيها . وان انتفاء وجود العقيدة القومية لايعني انتفاء وجود القومية وانما يعنـــي انتفاء وجود التعبير الفكري عنها نتيجة عوامل معينة ، واذا ماوجـــد الشعور القومي الذي هو احساس او انفعال افراد الامة بوحدتهـــم وترابطهم نتيجة وحدة وجودهم القومي ، سرعان ماينمو التعبير الفكـري الشامل « العقيدة القومية » بنمو تجارب الامة . وهذا مابدأ بالفعـــل في المرحلة الحاضرة من تاريخ الحركة القومية العربية .

والمرحلة الحالية من تاريخ الحركة القومية العربية تتميز بعقيدةاصيلة تنبع من واقع الحياة العربية ولا اقصد بذلك ان تراعي هذا الواقع او تسايره بل هي تستمد اصالتها من الحياة القومية عند العرب وهـــي لاتعترف بهذا الواقع الشاذ لانه واقع مجزأ او مفكك وضعيف ومريض وهي تضع حلا جذريا له . وهي عقيدة شاملة ايجابية تشمل الوطـــن العربي من المحيط الى الخليج وتتناول وضع الفرد العربي في مجتمعه ودوره وتحدد النظم والمؤسسات للمجتمع العربي كما انها تتسع لتحدد دور المجتمع العربي في العالم تحديدا ايجابيا . وهي عقيدة متطورة مستمدة من تجارب الامة العربية تتيح للوجود القومي ان يعبر عـــن نفسه باستمرار بافكار واراء متجددة وفق تجاربه المتجددة ووفق تجارب الانسانية المتجددة .

والعقيدة القومية الان لابد ان تكون المجل الذي يستوعب تجـــارب النضال العربي ، وهذا هو الضمان لعدم انحراف النضال من نضال عقائدي الى نضال سياسي انتهازي يبرر غاياته بالوسائل الرخيصة ويتخذ الاسباب وسائل للكسب . وهو ايضا الضمان لان لاتبقى العقيدة مجرد مجموعة من الافكار الجامدة .

كلية التربية ـ جامعة دمشق علي محافظه

القومية .. والشعور

بقلم : علي محمد أسعد

الامة العربية تحيا مرحلة انبعاث. ومنواجبالطليعة الواعية منابناء هذه الامة المجيدة ان تستنفر كل امكانياتها الفكرية والعملية ، لكـــي تحول دون تزييف هذا الانبعاث العظيم ، ولكي تحول دون ولادته ((هجينا)) بـــلا نسب !.

وعلينا ان ندرك ان « التزييف » قد اصبح خطة الاستعمار الجديدة . بعد ان فشلت خططه بالتجويع والارهاب والاعتداءات المسلحة . هـــذه الخطط التي لم يتحمل ثقلها الضمير العالمي .. فثار في وجهها ، وارغم متبعيها على التراجع عنها في كثير من الاحيان . وقد رأينا الثـورات

تبدأ بداية سليمة ، في تعبيرها عن كل حاجات الجماهير ، ثم لايلبث « الزيف » ان يتسرب اليها . فمنها من تنقلب على الجماهير التي احتضنتها وباركتها ، لتقتل وتشنق وتسحل : ومنها من تعمد الى « الثعلبية » والخبث .. فتدعي انها الوصية الامينة على كل مطالب الشعب ! ولكنها ـ في حقيقتها ـ منحرفة ، لاتهدف الا « لتمييع » حماس الجماهير ، ثم بالتالي لغرس « القرف » في نفوسهم .. من جراء خيبات الامل المتكررة ، التي تصفعهم في كل مناسبة .

لذا كانت مسئولية الطليعة الواعية مسئولية ضخمة . مجرد التقاعس عنها يعني افساح المجال امام القوى التي تعادي القضية العربية ، لكي تجد ثغرة تنفذ منها ، ومسئولية هذه الطليعة ـ في رأيي ـ تعني « التخطيط » قبل كل شيء . تعني تحديد معالم الطريق لكيلا نفاجأ باشارات مرور كاذبة تحول انظارنا عن الدرب الصحيح . وفي السنوات الاخيرة خلال المعارك المريرة التي خاضها الشعب العربي ـ وما زال ـ ضد الاستعمار والرجعية ، وجد نفسه يقاتل بدون تخطيط مسبق ، بدون شعارات مرسومة واضحة . مجرد مبادىء عامة يقاتل من اجلها الشعب ، ويحياها باحساسه فقط : التخلص من الاستعمار مثلا .. القضاء على الاقطاع والرجعية !. اما كيف ؟!.. فهذا ماوجدنا اننا لم نجب انفسنا عليه بعد !. لذلك رحنا نخطط ونحن نقاتل . فالايمان بالافكار العامة وحدها لايكفي ! ولا بد من ان نحسب لكل شيء حسابه ، حتى للتفصيلات الدقيقة جدا ، لكي نحقق ـ بالنتيجة ـ تلك الافكار . ومن البديهي ـ بعد هذا ـ ان نصطدم بالواقع ، وان نجد الكثير من الكلمات التي استعملناها في قاموس نضالنا ، وهي تلبس اثوابا ليست لها بالاصل !. فالقومية العربية ـ كمثال ـ اتخذت مؤخرا ستارا سياسيا ، واصبحت ترددها الافواه في كل مناسبة ، للتدليل على اننا ـ نحن الشعب العربي ـ نهدف في نضالنا الى أشياء معينة . كأن يقول احدنا مثلا : « لقد كانت القومية العربية وهما واصبحت حقيقة » او : « القومية العربية تعني التصنيع » !. وأشياء كثيرة اخرى . والحقيقة هي ان هذه التعبيرات ـ بغض النظر عن حسن نية قائليها ـ تعبيرات خاطئة !.

اذ ان القومية العربية لم تكن في يوم من الايام وهما ، وليست تعني ـ بأي حال من الاحوال ـ التصنيع ! وانما هي موجودة منذ فجر التاريخ العربي .. منذ ان وعى الانسان العربي ذاته ، وستظل « حقيقة» واقعة ، طالما هنالك امة عربية . وحتى في الفترات الحالكة من تاريخنا ، لم تكن القومية العربية وهما ، بل هي ـ ابدا ـ صلة « رحم » بين العربي وأمته ، هي « النسب » الذي يربط الفرد ببني قومه ، وفي الاشتقاق اللغوي « قومية » ـ « قوم » مايؤيد هذا القول .

يقول رجاء النقاش في معرض رده على الانسة نازك الملائكة في العدد الماضي من الاداب : « ان نازك الملائكة تنفر نفورا واضحا من اعتبار القومية العربية عقيدة ، والحقيقة هي انها اولا وقبل كل شيء عقيدة »!! وانا اتساءل بدوري وسأكون صريحا : اذا كانت القومية العربية عقيدة، فماذا يعني الحال عند الذين لايؤمنون بهذه العقيدة ! وهم كثر ـ مع الاسف ـ في الوطن العربي حتى الان ؟!.. أفنستطيع القول ان هؤلاء ليسوا عربا ؟!.. أفيشتط بنا الحماس ـ كما فعل بالاخ رجاء حينما قال: « انني لاستطيع ان اقتنع ابدا بان عدو الاشتراكية هو قومي عربي .. حتى لو اثبت بالدلائل القاطعة انه من سلالة قحطان او عدنان » .. الخ !!

ان الحقيقة التي لاتقبل الجدال هي ان كل عربي ـ بالبداهة ـ قومي عربي ، حتى لو كان خائنا .. حتى لو كان مأجورا . عميلا للاستعمار ! وحتى لو كان كافرا بهذه القومية . انه قومي عربي بالرغم عنه : وبالرغم عنا ايضا ، والتفاوت هنا يأتي من درجة شعور كل منا واعتزازه بقوميته، ثم بالتالي اضطلاعه بالمسئوليات المترتبة على هذا الشعور . فالعربي الذي يعادي الاشتراكية او الحرية او الوحدة العربية .. لانستطيع ان نجرده من قوميته .. لانها ليست جنسية !! ولكن يمكننا القول انه غير صالح : وهو ضار بأمته ، والالتباس حاصل عند الاستاذ النقاش ـ كما لاحظت الانسة نازك ـ من عدم تفريقه بين القومية ، كصلة رحم بين الفرد وأمته من جهة ، وبين الدولة ككيان ينظم شمل افراد الامة جميعهم ، ويعطيهم شخصيتهم الخاصة من جهة ثانية . وانا ألتمس لرجاء العذر .. لكونه قد انزلق الى هذا الخطأ : وله من حرصه على قضية امته ، وايمانه بأهدافها مايشفع له : ولكني اذكره ـ وهو الناقد الاديب ـ ان « المآخذ » التي لاحظها على شاعرتنا المبدعة ، من ان فكرتها عن القومية العربية ، شاعرية غامضة ، وان هذه الفكرة تعني بقاء القومية « خيالية رومانسية » !! أقول : ان هذه المآخذ غير واردة اطلاقا . لان نازك تتكلم عن « القومية » فقط . وليس عن « النضال » من اجل القومية والفارق واضح ـ حسب اعتقادي ـ بين ان نتكلم عن القومية كمثل مجرد : وبين ان نتكلم عن الطرق الواجب اتباعها .. في سبيل اعلاء شان هذه القومية !.

ويقيني ان نازك لاتختلف مع رجاء في الملاحظات التي اوردها حول ضرورة « التنظيم الموضوعي » . اذ انه ما من عربي في كل ارجاء وطننا الكبير يبغي لامته الرفعة ، يؤمن بان الاشياء النظرية المجردة وسيلة صالحة لتحقيق اهداف الامة العربية وانما العمل ، والعمل وحده المبني على التخطيط والتنظيم هو الكفيل ـ يعززه الايمان ـ بتخليص شعبنا من هذه التركة الثقيلة المبنية على الجهل والفقر والفوضى والعبودية !. اما الامثلة التي ساقها الاخ رجاء عن المؤثرات التي سطت على الشعور القومي : وأقواها : التجزئة : وما جرته من انحراف فكري.. دفع البعض في عدد من الاقطار العربية الى المناداة بالتخلص من كل ماهو عربي وبناء شخصيات اقليمية جديدة لهذه الاقطار ، فانا معه في ان التجزئة سلاح خطير .. حاربنا به الاستعمار منذ قرون طويلة ، مدركا ما للتجزئة من اثر في تضليل الانسان العربي عن حقيقة امته . وما زال الاستعمار يلح في استعمال هذا السلاح لكي يظل العرب تائهين في ضلال الاقليمية . ولكني اختلف معه في اعتبار هذه الامثلة دليلا على ماأسماه بـ « النظرة العلمية التي تدعو للايمان بالقومية » مبنيا ان « أصالة الشعور القومي وعمقه يمكن ان يزولا اذا انتسبا الى قومية ضعيفة من الناحية العلمية » !!.

.. وهنا الخطأ في عدم التفريق بين القومية نفسها ! وبين الشعور بها. فالشعور هذا شيء نسبي يختلف من شخص لاخر بين مد وجزر بينما القومية مطلقة ، وواحدة لدى الجميع ، واستشهد على ذلك بالمثال التالي:

ثلاثة أشقاء عرب ، احدهم درس في اوروبا : وعاد ليبغي على امته تهالكها على اجترار الذكريات ، وتعلقها بالاحلام ، مشككا بقدرتها على احتلال مكانتها بين أمم الارض .. كأمه ذات سيادة جديرة بالاحترام ! والثاني تعلم في بلده ، وعاش صراع أمته مع اعدائها خطوة .. خطوة !. لذلك تراه مؤمنا بعظمتها . موقنا بانها ستنتزع كامل حقوقها ، وستكون ذات شأن عظيم : والثالث لم تتح له الظروف ان يتفتح على الحياة بصورة كافية فعاش يرقب ماحوله دون ان يعي الاحداث او ينفعل بها . لذا لم يكن يسخر من امته كشقيقه الاول : ولم يكن يمجد نضالها ويعمل لاجلها كشقيقه الثاني .

ان هؤلاء الاشقاء ـ بحكم الحقيقة ـ قوميون عرب : ولكنهم من ناحية الشعور ، مختلفون فيما بينهم : وعلى درجات متفاوتة وقد أوردت هذا المثال لادلك على ان القومية غير الشعور القومي : وهذا مالم يتنبه اليه الاخ رجاء . ونحن ـ كعرب ـ نمجد صاحب الشعور القومي : ونحبه ونحترمه ، لان هذا الشعور لابد ان ينعكس عملا مفيدا يجلب الخير للوطن . ولقد ذقنا كثيرا من ضعف الشعور القومي الذي اباح للبعض ممن هيأتهم الظروف لكي يكونوا قادة ـ وفي فترات مختلفة ـ ان يتحللوا من التزامهم الاخلاص والعمل الجدي المثمر في قيادتهم ، وان يكونوا ادوات طيعة في يد الاجنبي .. يحركها كيفما شاء : وللغاية التي يريد . وحسبنا ما نرى في وقتنا الحاضر من أمثلة واقعية ملموسة تجعلنا نحس مدى الحاجة الى التركيز على اذكاء الشعور القومي في نفوس المواطنين.. لكي تتم بالتالي عملية اصطفاء القيادة بصورة يتحكم فيها هذا الشعور .

وفي النهاية احب ان اعود لاذكر الاستاذ رجاء مرة ثانية ان النعوت

المتعددة التي اطلقها على القومية العربية .. جاءت غير منسجمة مع بعضها . فمن اطلاقه صفة « الاكتساب » على القومية الى قوله : « ..ان مأساة فلسطين تعتبر جرحا ينزف باستمرار في جسد !! القومية العربية»! الى قوله في موضع اخر من مقاله : « ان القومية العربية تقوم على اساس من الشعور العميق في نفوس المواطنين » !!

والحقيقة ـ كما أسلفت ـ أن القومية لا تكتسب : وانما الشعور بها وحده هو الذي يكتسب : وهي موجودة .. شعر وجد هذا الشعور ام لم يوجد . وكذلك بالنسبة لاعطائه الصفة التجسدية للقومية !!. وقد كان الاصح ان يقول جسد الامة العربية ..

وليعذرني الاخ رجاء النقاش. فانا لا أدعي « العلم » ولكنه مجرد رأي متواضع ، كنت اتمنى دائما ان اعلنه ، نظرا للاخطاء « اللفظية » الكثيرة التي يقع بها جيلنا ، فبالاضافة الى وضع كلمة « القومية » في غير موضعها ، نرى الكثيرين ايضا ـ وعن نية حسنة ـ يقولون « الشعوب » العربية ، والصحيح ان نقول الشعب العربي ، فنحن شعب واحد ، ولسنا شعوبا ! وهذه « الكيانات » الموجودة ـ حاليا ـ هي كيانات باطلة ، وجدت ـ في الاصل ـ لتمزيق شمل شعبنا العظيم .

دمشق — علي محمد أسعد

ظاهرة خطيرة في ادبنا الحديث

بقلم غالي شكري

في العدد الاخير من « الاداب » ، ظاهرة هامة تسترعي الانتباه والتأمل ، فقد كتب اديبان شابان مقالين ، احدهما عن القصة القصيرة ، والاخر عن الشعر الجديد ، والسمة البارزة في المقالين هي التصميم والحسم في اطلاق الاحكام السريعة ، بصورة تجعل من النقد شيئا قريبا من اعمال المقصلة وغرفة الاعدام !

فالمقال الاول ـ للاستاذ صبحي شفيق ـ ينفي ان تكون هناك قصة مصرية قصيرة بالمعنى العلمي الصحيح ، ويجزم بان القصاص المصري في عام ١٩٦٠ لم يتخلص بعد من المفاهيم القديمة للاقصوصة التي يمثلها الانتاج الاول لمحمود تيمور . كما لم تتخلص القصة المصرية القصيرة في نظره مما أسماه بالمزيج من السيرة الشعبية وفن البورتريه .

واول مايتبادر الى الذهن ان الكاتب لم يكن مخلصا بدرجة كافية حين أكد في مقاله ان الفنون الاوروبية كانت تسير في خط مواز لتطور المجتمع الاوروبي نفسه .. فلم يحاول ان يستخلص من هذه الظاهرة قانونا عاما يمكن تطبيقه على فنون اي مجتمع . ذلك ان القصة القصيرة في مصر ـ شأنها كأي فن اخر ـ ظلت في تطور دائب مستمر منذ اتخذها جيل الرواد شكلا فنيا لتجاربهم ، الى ان اتصلت بتجارب الاجيال التالية ، فازداد هذا الشكل الادبي صقلا ومواءمة لحياتنا ، ثم تجاوزت هذه المرحلة نحو اخرى جديدة لم نتبين معالمها بعد . وكانت القصة في مختلف هذه الاطوار تتعمق وجداناتنا بصورة واضحة موازية للتطور الاجتماعي لتاريخنا .

ورواد القصة القصيرة في بلادنا لم يرثوا هذا القالب الفني عن الادب العربي القديم حتى يقال ان اعمالهم تأثرت بالسير الشعبية ، فما تزال بصمات تشيكوف وموبسان وساروبان غالبة على كيان الاقصوصة المصرية . وان كانت الاجيال الشابة من ادبائنا قد استطاعت بالفعل ان تنجو من ربقة التقليد والمحاكاة بتمثلها انتاج الغرب تمثلا واعيا عميقا اتاح لهم اتساع الرؤية الانسانية والبصيرة الفنية على السواء .

كذلك فالسيرة الشعبية ـ كقالب تعبيري ـ لاتملك امكانية التأثير في القصة القصيرة (١) ، لان طبيعة قالبها تختلف تماما عن طبيعة الاقصوصة ..

فلو قيل ان الرواية هي التي تأثرت بذلك الاطار ، لكان القول اقرب الى الصواب حيث ان العمل الروائي يعتبر امتداد ا اكثر تطورا للسيرة الشعبية والملحمة .

اما فن البورتريه ، فلا يعقل ان يكون احتكارا لعصر الاقطاع كما يرى الكاتب ، رغم اتفاقنا على ان هذه الطريقة التخطيطية الوصفية قد نشأت في احضان ذلك العصر . فللفنان مطلق الحرية في استغلال اية وسائل تعبيرية سابقة على تقاليد عصره الفنية مادامت تحقق له شيئا من كمال العمل الادبي . على ان فن الصورة الادبية الموحية الذي رأينا له مئات النماذج في ادب تشيكوف وغيره ، والذي يبدو واضحا في انتاج بعض ادبائنا ، لايمت بصلة قرابة حاسمة الى الفن الوصفي التخطيطي « البورتريه » كما عرفت فنون عصر الاقطاع .. لقد اكتسب في عصرنا الحديث صفات جديدة من سمات الزمن ، تنعطف به ناحية الاصالة والجدة والابتكار .

ولا تنفي هذه الملاحظات جميعها ـ بالطبع ـ مابين انتاجنا الحديث في القصة القصيرة ، وانتاج روادنا الاول من صلات البنوة والابوة . كما لاتنفي مطلقا تأثر ادبائنا الجدد بالثقافات القديمة ، وفي مقدمتها الثقافة العربية . غاية ما يمكن ان نعيد القول فيه ، أن تطورنا الاجتماعي قد حتم ـ تلقائيا ـ تطور فنوننا ، اذا آمنا بان الفنون هي المرآة الفكرية لكل تطور اجتماعي .

لذلك ادهشني من الاستاذ صبحي ان يتعرف على تطور المجتمع الاوروبي الذي انتج بالضرورة فنونا بعينها كانت تعبيرا حاسما عن هذا التطور .. ثم لايحاول تطبيق نفس القاعدة على مجتمعنا وفنوننا .

وهناك نقطة اخيرة في مقال الكاتب يتهم فيها القصة المصرية بالتعميم لبعدها عن الذاتية والتخصص في رسم الشخصيات . والخطأ الفادح في هذا الحكم ان صاحبه يفرق بين الشخصية النمطية كنموذج بشري يلخص الملايين ، وبين « ذاتية » هذا النموذج التي تنفرد به عن ذوات الملايين من حيث وجودها الفني الخاص . وفي انتاجنا القصصي المعاصر عشرات الاعمال تحقق هذا المعنى فلا تفصل ـ فنيا ـ بين النمطية والذاتية في النموذج البشري الواحد . وربما كانت هناك اعمال لم تحقق درجة عالية من التكامل ، غير ان هذا لايبرر عملية الاطلاق والتعميم والحكم السريع على تاريخنا الادبي .

*

المقال الثاني للاستاذ محيي الدين محمد ، عن الشعر الجديد . ولن احاول الربط بين هذا المقال والحملات النشيطة هذه الايام ضد شعرنا المعاصر . ولعل السبب الموضوعي الوحيد لهذه الظاهرة ، هو غلبة النماذج السيئة من شعر الشباب على سوق القراءة . الا ان الدراسة الموضوعية الجادة لهذا الشعر ينبغي ان تكون بمعزل عن انتاج شاعر بعينه او قصائد بعينها ، وانما يجب ان تتسع نظرتنا في شمول يحتوي ـ بقدر المستطاع ـ انتاجنا الشعري كله ، بمختلف جوانبه وظواهره ، فنستوعب حينئذ الملامح العامة الرئيسية للشعر الجديد ، ومن ثم يتيسر لنا الحكم له او عليه في امانة الدراسة الجادة والبحث العلمي .

وهذا ماحاوله الكاتب في مقاله ، وان جانبه الصواب في التطبيق ، فما اقدم عليه الكاتب من تقسيم لشعرائنا المعاصرين لم يكن نتيجة واعية لاستقراء اعمالهم الشعرية بعيدا عن المفاهيم القلقة ، وردود الافعال الحادة التي تمثلت في نكران النسب القائم بين الشاعر العربي المعاصر، وتراثه القديم . فقد توهم بعضنا ـ بوحي من النماذج الجيدة في شعرنا الجديد ـ ان يصل بين هذا الفن والشعر الاوروبي . وانساق ، مضطرا ، لان يقيس مدى نجاح الشاعر العربي في انتاجه بمقاييس الشعر والنقد الغربيين .

---

(١) ربما امتلكت هذه الامكانية « الحدوته » او « الحكاية » .

ومع اننا نعترف بفضل الانتاج الشعري والنقدي في اوروبا على ثراء وعينا الفني ، الا اننا نعترف ايضا بانتساب شعرنا الجديد الى حلقات التطور الطبيعي وحركات التجديد في الشعر العربي على مدى تاريخه . اذ لايمكن ان تلد ارضنا وتاريخنا ومجتمعنا هذا الشعر ، بينما يكون ابوه الشرعي في غير هذه الارض وهذا التاريخ وهذا المجتمع .

من هنا اختلفت نظرتنا الى الشعر عن نظرة الغرب ، فلا نستطيع مثلا ان نتخذ من « اليوت » قدوة ذاتية في شعرنا . بمعنى اننا لانفيد منه سوى الخصائص الفنية الجزئية في شعره ، ونفترق عنه تماما في نظرته العامة للشعر . لهذا يتحتم علينا معاملة هذه النظرة بحذر شديد لاننا معرضون لاخطاء كثيرة ـ كتلك التي وقع فيها الاستاذ محيي ـ اذا حاولنا تطبيقها على شعرنا ، فالاساس الذي اقام عليه تقسيمه للشعراء الشباب الى فريقين هو ان احدهما يتخذ الرمز مرادفا للشعر، فيزاوج بين التجربة ورمزيتها بصورة يتعذر معها الفصل بينهما ، لذلك يقول :

« .. والشعر يستحيل ان يكون شعرا ، اذا لم يكن دراميا في الحقيقة والاصول . ممتلئا بالالم والعذاب ، لانه تسجيل لصمت فرد يواجه الطبيعة والجبر واللامعقول » .

ولا ريب ان هذا التعريف مستمد من طبيعة لون معين من الشعر يعتمد اساسا « على ذلك العصير الشهي للاساطير الشعبية والخرافات » .

ولكن .. هل صحيح ان الشعر لايتحقق وجوده الفني الخاص ، الا بالرمز ؟

ان مئات القصائد العظيمة لبابلو نيرودا وناظم حكمت وايلوار ولوركا ، تكاد تخلو تماما من الرمز .. بل ان امامي الان قصيدة « الارض الخراب» لاليوت « وهي تعتبر رمز الرموز » ، فأجد فيها اكثر من اربعة وعشرين بيتا خالية من اية رموز ..انه يقول مثلا :

« وجاءتني كلمة الله قائلة :
« ايتها المدن التعسة التي بناها
رجال مدبرون
« ايها الجيل التعس المؤلف من
رجال واعين
« لقد أوقع بكم في تيه براعتكم
« ولقد صرتم تباعون بما كسبتم
من اختراعات
« وهيبتكم الايدي ، فتحولتم بها
عن العبادة »

وهذه الابيات غاية في الوضوح والجلاء والمباشرة ، وتلخص نظرة اليوت المعادية لحضارة العالم الحديث دون اية التواءات او غموض .

والحق ان الرمز لم يتحول الى شيء معقد وغامض ، الا على يدي المدرسة الرمزية في اوروبا ، حيث لم يقتصر دور الرمز على كونه منهجا للتعبير ، وانما اصبح منهجا للتفكير ايضا . فقد ارغمت الاوضاع السيئة بعض الادباء حينذاك الى « الهروب » من واقعهم المر ، بالغوص في متاهات اعماقهم تارة ، وبالتحليق في فضاء المجهول تارة اخرى ... فاختلطت على بصائرهم المرئيات ، واصبحوا هم ـ مثل اعمالهم ـ رمزا صادقا لذاك المجتمع السيء .

غير ان للرمز ـ منذ فجر التاريخ اشكالا عديدة وصورا كثيرة . والاسطورة الشعبية والخرافة « كما تتمثل رمزيتها في شعر اليوت » ليست الا شكلا واحدا فقط ، فتشبيه الصورة المادية في الشعر العربي القديم بصورة مادية اخرى ، كان شكلا رمزيا معينا . كما ان تشبيه الصورة المادية باخرى معنوية ـ او العكس ـ في الشعر الحديث، شكل رمزي اخر .. وهكذا .. حتى اليوت في « الارض الخراب » يقول :

« نحن الرجال الفارغون
« نحن الرجال الممتلئون
« نتسانـد
« ورؤوسنا محشوة بالقش
وأسفاه
« وأصواتنا الجافة ، عندما
« نتهامس
« تكون هادئة بلا معنى »

ماذا نرى في هذه الابيات ؟ نرى صورا مادية صريحة ترمز الى حالة وجدانية اكثر صراحة . فليست الرؤوس المحشوة بالقش ، الا رمزا عبر بواسطته الشاعر عن تفاهة تلك الادمغة وسطحيتها ولا وعيها ... فجاءت عملية التقابل في مخيلة الشاعر بين الرجال « الفارغين » والاخرين « الممتلئين » صورة ذكية بارعة ، كشف بها عما نظنه امتلاء ، وهو الفراغ والعدم واللاشيئية .

ولنتابع الشاعر في نفس القصيدة :

« بين الفكرة والحقيقة
« بين الحركة والعمل
« يقع الظل
« بين التوهم والخلق
« بين العاطفة والاستجابة
« يقع الظل »

و « الظل » هنا رمز عميق للغاية ، لانه يصور هذه اللحظة اللامرئية بين الصمت والاكتشاف ، هذا الخيط الرفيع بين ظلمة اللامنظور واشراقة الرؤية .. الى بقية الدلالات التي يمكن استيحاؤها من هذه الابيات الرامزة ، والتي لم يلجأ اليوت في تصويرها الى حصيلته الضخمة من الاساطير والخرافات .

ورغم ان الرمز في ذاته وسيلة ثمينة جدا في الايحاء والكشف ، الا ان بعضنا يفهمه كباب مغلق لايجتازه الا من كان على جانب خيالي من الثقافة الاسطورية . وهذا الفهم يطمس قيمة الرمز كاسلوب في التعبير،

صدر حديثـــــا :

دراسات في القومية

من محتوياته :

القومية اطارها ومحتواها ـ للدكتور حنيف الرزاز
معالم القومية التقدمية ـ للاستاذ ميشيل عفلق
الجذور التاريخية للقومية ـ للدكتور عبد العزيز الدوري
الانسانية الصحيحة والقومية ـ الدكتور بديع الكسم
القومية العربية والتاريخ ـ للاستاذ الياس فرح
في مبادىء ثورة الجزائر ـ للاستاذ صدقي اسماعيل

منشورات دار الطليعة

يثري تجربة الشاعر ويخصب دلالاتها . والتجربة الثرية الخصبة تجربة مفتوحة لاتقبل الانغلاق والتعقيد ، مهما بلغت رمزيتها من العمـــق والكثافة . بل ان العمق الحقيقي هو ما استجلى منافذ البشريـــة ، وتسرب الى تلافيفها وحناياها .. وهذا لايتأتى بالرمز المعقد المغلق .

على ان قضية الشعر في النهاية ليست قضية الرمز . لان الفن ـ اي فن ـ اكبر دائما من وسائلهالتعبيرية منفردة . فما يزال بناء القصيدة بالصور وسيلة حية رائعة ، لو احسن الشاعر فهمها . كما لايزال الطريق مفتوحا لاكتشاف قوالب واساليب راقدة في ضمير التطور .

وهكذا نستدل على خطورة المسلك الذي يتجه نحو الاطلاق والتعميم في اصدار الحكم على جيل كامل من الشعراء .. ذنبهم الوحيد انهـم لايتكئون في راحة على موائد غيرهم ، وانما يعانون في قسوة وعنف مرحلة الانتقال الدامية في تاريخ ادبهم ، ويقاسون ـ من اجل ذلـك ـ عذابا دونه عذاب الكبار الذين سلكوا طرقا ممهدة مفتوحة .

غالي شكري

حول القومية ... والارهاب !

بقلم علي بدور

تفضل الاستاذ سليمان فياض فنقد الابحاث المنشورة في العدد السابع من الاداب .. وقد جاء في سياق مناقشته للشاعرة نـــازك الملائكـة هذه العبارة (والا تكون حواريتها بهذا العنوان نوعا مـــن الاستعداء الضمني يذكر قراء الاداب باستعداء اخر لعلي بدور ..)

ويسرني ان اوضح للاستاذ القاص الناقد وللسادة القراء .. ان البحث في القومية العربية على الصعيد الفكري لا يمكن ان يتجه هذا الاتجاه البعيد عن كل موضوعية .. الا اذا قصد منه الدعاية المجردة من الاسس التي تقوم عليها كل فكرة سليمة هادفة .

وانا هنا لست بصدد الدفاع عن نفسي كأن اقول انني لم اكـن اقصد الاستعداء الضمني او الصريح ولست من المؤمنين به .. مثـل ما اريد ان اقول انني عندما كتبت ونقدت وعندما قرأتمقالنازك وردود ـ الاستاذ رجاء عليها .. لم اصل الى الحد الذي يعتبره الاستاذ فياض استعداء ارهابيا ذكره باستعداء اخر لعلي بدور ..

واذا كان لي من قول اخر اقوله في هذه العجالة فهو ان القومية العربية كفكرة لا يضعفها شيء مثل تصدي بعض حملة الاقلام للخوض في مواضيعها مجردين من حاسة الشعور واحاسيس الحب لكل مـــا هو عربي خلص من العرقية والعصبية والطائفية والاقليمية .. وبذلك يستقيم الهدف باستقامة الوسيلة اليه ، لاننا نريد ان تنفتح صدورنا للاراء مهما كان لونها .. فهي وحدها الحد الفاصل بين الموضـوعيـة والاستعداء الضمني او الصريح .. دون حاجة لان تذكر ، وبلا روية ، الذين تحدثوا مخلصين ، وفي اعتقادهم انهم ادوا واجبهم .. دون ان يسألوا عمن يستحق ان يكون موضوعا لارهاب من اي نوع .. لان حرية الفكر في الاساس اذا كانت تبيح الحديث على مختلف الموجات .. فانها لا تبيح وبسهولة مفرطة اتهام الاخرين بما هم من براء ..

فلعل الاستاذ فياض يتأكد ان علي بدور .. لن يكون في يوم ما .. ضمن قائمة المحبذين للارهاب ضد حملة الاقلام المخلصين .. وكذلك لن تكون نازك الملائكة .. ولن يكون الاستاذ فياض ممن يعدون قوائم المحبذين للارهاب الذي تمجه النفوس الحرة .. ولعله يرجع حتى عن قائمته الاخيرة !

الفنون الأدبية عند العرب

صدر منهـــــا :

١ ـ فن القصة (جزءان)

٢ ـ فن الوصف »

٣ ـ فن الشعر الخمري

٤ ـ فن الملحمـة

٥ ـ فن الهجـاء

٦ ـ فن الشـعر الخمري

٧ ـ فن الفخر

٨ ـ فن الشـعر الملحمي

نشر : دار الشرق الجديـد ـ بيروت

توزيع : الشركة العربية للتوزيع ـ بيروت